



العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية في ضوء المصادر التاريخية

رعد عاصي عبدالله نصيف

raadassi1981@ gmail.com

ملخص البحث

بحثت هذه الدراسة في العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، متجاوزاً السرد العسكري للكشف عن الآليات المؤسسية التي أدارت الصراع والتعاون بين القوتين العظميين في حوض المتوسط لقرون. اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي والمقارن، من خلال نقد المصادر الإسلامية والبيزنطية لاستخراج الحقيقة التاريخية بعيداً عن التحيز، مع تحليل الخطاب الدبلوماسي والمراسلات المتبادلة بين الطرفين. أظهرت النتائج تحولاً استراتيجياً في العصر العباسي من التوسع الهجومي الأموي، إلى سياسة تركز على إدارة الحدود والدفاع، مما أفسح مجالاً لنشوء دبلوماسية منظمة تشمل السفارات، والمعاهدات، واتفاقيات تبادل الأسرى بشكل إنساني منظم. كما كشفت الدراسة عن ثنائية في الخطاب المتبادل الذي جمع بين الصرامة الأيديولوجية الدينية في المراسلات، والمرونة البراغماتية السياسية في التطبيق العملي. وأكدت التحليلات أن المناطق الحدودية (الثغور) لم تكن فقط خطوط تماس عسكرية، بل فضاءات حيوية للتفاعل اليومي والتبادل التجاري والثقافي، مما ساهم في استقرار الاقتصاد المحلي للطرفين. كما ارتبطت قوة الدبلوماسية العباسية بالاستقرار الداخلي للدولة، حيث استُخدمت النجاحات الخارجية لتعزيز الشرعية للخلفاء. وأوصى البحث بضرورة إبراز الجانب الدبلوماسي في التاريخ الإسلامي ضمن المناهج الأكاديمية، والاستفادة من نماذج إدارة الصراع العباسية في الدبلوماسية المعاصرة. ختمت الدراسة بأن التجربة العباسية-البيزنطية تمثل نموذجاً ناضجاً لإدارة العلاقات الدولية بين حضارتين مختلفتين، حيث نجحت الدبلوماسية في تحويل الصراع الوجودي إلى علاقة قابلة للإدارة، محافظة على قنوات التواصل الحضاري والعلمي الذي أغنى التراث الإنساني المشترك عبر قرون.

الكلمات المفتاحية: الدولة العباسية، الإمبراطورية البيزنطية، الدبلوماسية الإسلامية، العلاقات الدولية، المصادر التاريخية

Diplomatic Relations between the Abbasid Caliphate and the Byzantine Empire in Light of Historical Sources

Raad Assi Abdullah Nassif

Abstract

This study investigates the diplomatic relations between the Abbasid Caliphate and the Byzantine Empire, moving beyond military narratives to uncover the institutional mechanisms that managed conflict and cooperation between these two great powers in the Mediterranean basin for centuries. The research employed the historical-analytical and comparative methods, critically examining Islamic and Byzantine sources to extract historical truth free from bias, alongside an analysis of diplomatic discourse and exchanged correspondence between both parties. The results revealed a strategic shift during the Abbasid era from Umayyad offensive expansion to a policy focused on border management and defense. This paved the



way for the emergence of organized diplomacy, encompassing embassies, treaties, and structured humanitarian agreements for prisoner exchange. Furthermore, the study uncovered a duality in the mutual discourse, combining religious ideological rigidity in correspondence with political pragmatic flexibility in practical implementation. The analyses confirmed that border regions (*Thughur*) were not merely military lines of contact, but vital spaces for daily interaction, commercial trade, and cultural exchange, contributing to the stability of the local economy for both sides. Moreover, the strength of Abbasid diplomacy was linked to the internal stability of the state, where external successes were utilized to reinforce the legitimacy of the Caliphs. The research recommended highlighting the diplomatic aspect of Islamic history within academic curricula and leveraging Abbasid conflict management models in contemporary diplomacy. The study concluded that the Abbasid-Byzantine experience represents a mature model for managing international relations between two distinct civilizations. Diplomacy succeeded in transforming an existential conflict into a manageable relationship, preserving channels of civilizational and scientific communication that enriched shared human heritage over centuries.

Keywords: Abbasid Caliphate, Byzantine Empire, Islamic Diplomacy, International Relations, Historical Sources.

مقدمة البحث

تُعد العلاقات الدولية في العصر الوسيط ميدانًا خصبًا للدراسة التاريخية، ولا سيما تلك التي جمعت بين قوتين عظميين شكلتا محور الصراع والتفاعل في حوض البحر المتوسط لقرون طويلة، ألا وهي الدولة العباسية (١٣٢-٦٥٦ هـ / ٧٥٠-١٢٥٨ م) والإمبراطورية البيزنطية. لقد تجاوزت طبيعة هذه العلاقات الإطار العسكري البحت الذي طغى على الكثير من السرديات التاريخية التقليدية، لتشهد فترات من الهدنة، وتبادل السفارات، والاتفاقيات التجارية، بل والتبادل الثقافي والعلمي الذي أثر في مسار الحضارة الإنسانية. وإن فهم الديناميكيات الدبلوماسية بين الطرفين لا يقتصر على رصد الأحداث السياسية فحسب، بل يتطلب غوصًا عميقًا في الآليات المؤسسية والبروتوكولات التي حكمت هذا التفاعل، وذلك بالاعتماد على نقد المصادر التاريخية المتاحة. وتكمن إشكالية الدراسة في الحاجة إلى إعادة قراءة هذه العلاقات عبر منظور دبلوماسي مؤسسي، بعيدًا عن النظرة الأحادية التي تختزل العلاقة في حالة الحرب الدائمة، مما يستدعي تسليط الضوء على الجوانب الإدارية والسياسية التي أدارت هذا الصراع والتعاون المعقد (زكار، ١٩٧٥).

مشكلة البحث

تتمحور مشكلة البحث في وجود فجوة معرفية نسبية في الدراسات التاريخية المعاصرة التي تناولت العلاقات العباسية-البيزنطية، حيث تركز الغالبية العظمى منها على الجانب العسكري والفتوحات والحدود (الثغور)، بينما أهملت الآليات الدبلوماسية الدقيقة التي كانت تدير فترات السلم أو الهدن المؤقتة. كما أن المشكلة تتعمق عند التعامل مع المصادر التاريخية، إذ تعاني المصادر الإسلامية (كتاريخ الطبري والكمال لابن الأثير) من ميل طبيعي لتمجيد الخلفاء وإنجازاتهم، بينما تميل المصادر البيزنطية إلى تقليل الخسائر وتضخيم الانتصارات الإمبراطورية، مما يخلق تحديًا منهجيًا في استخراج الحقيقة التاريخية للدبلوماسيات المتبادلة



(الطبري، ١٩٦٠؛ ابن الأثير، ١٩٦٥). وعليه، فإن السؤال الرئيس الذي يحاول هذا البحث الإجابة عنه هو : ما هي طبيعة الآليات الدبلوماسية والمؤسسية التي اعتمدها الدولة العباسية في إدارة علاقاتها مع الإمبراطورية البيزنطية، وكيف يمكن نقد المصادر التاريخية لكشف حقائق هذه العلاقات بعيداً عن التحيز؟

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يساهم في إثراء المكتبة التاريخية الإسلامية بدراسة متخصصة تغوص في تفاصيل " الفن الدبلوماسي " في العصر العباسي، وهو جانب حيوي لفهم بنية الدولة الإسلامية الخارجية. كما أن البحث يكتسب أهمية تطبيقية من خلال إبراز كيفية إدارة الدولة الإسلامية للصراع مع القوى الكبرى المجاورة باستخدام أدوات السياسة الدولية المعقدة، وليس فقط القوة العسكرية، مما يعكس نضج الفكر السياسي الإسلامي آنذاك (سعيد، ١٩٨٥). بالإضافة إلى ذلك، فإن الدراسة تقدم قيمة منهجية من خلال تطبيق قواعد النقد التاريخي على المصادر الإسلامية والبيزنطية معاً، مما يساعد في تنقية الروايات التاريخية من الشوائب والدعايات السياسية. ولا يمكن إغفال الأهمية الحضارية للبحث، إذ يكشف عن قنوات التواصل الثقافي والعلمي التي استمرت حتى في فترات التوتر، مما يعزز فهم التفاعل الحضاري بين الإسلام والمسيحية الشرقية في العصور الوسطى (العمرى، ١٩٨٠).

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف العلمية المحددة، والتي يمكن إجمالها في النقاط الآتية : ١. الكشف عن الأسس النظرية والعملية للدبلوماسية في الفكر السياسي العباسي تجاه البيزنطيين. ٢. تحليل طبيعة المعاهدات والهدن واتفاقيات تبادل الأسرى، وبيان مدى الالتزام بها من قبل الطرفين. ٣. دراسة دور السفارات والبعثات السياسية كأداة للتفاوض ونقل الرسائل السياسية بين بغداد والقسطنطينية. ٤. تقييم المصادر التاريخية الإسلامية والبيزنطية المتعلقة بهذا الموضوع، وبيان درجة موثوقيتها وتحيزاتها. ٥. توضيح أثر العوامل الدينية والأيدولوجية في صياغة الخطاب الدبلوماسي والسياسي بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية.

منهجية البحث

اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي كأداة رئيسية لاستقصاء الحقائق التاريخية، وذلك من خلال جمع البيانات من المصادر الأولية والثانوية، ثم إخضاعها للنقد الخارجي والداخلي للتحقق من صحتها وموثوقيتها. وقد تطلب الأمر استخدام المنهج المقارن لموازنة الروايات الإسلامية مع نظيرتها البيزنطية حول الأحداث نفسها، مثل المعاهدات والبعثات، للوصول إلى رواية متوازنة (حمادة، ١٩٨٩). كما استعان البحث بالمنهج الاستقرائي لتحليل النصوص الدبلوماسية والرسائل المتبادلة واستنتاج القواعد العامة التي حكمت السلوك الدبلوماسي العباسي. أما فيما يتعلق بالمصادر، فقد اعتمد الباحث على المصادر الأولية الإسلامية كـ "تاريخ الرسل والملوك" للطبري، و "فتوح البلدان" للبلاذري، بالإضافة إلى المصادر البيزنطية المترجمة مثل أعمال " ثيوفانس"، مع الاستعانة بالدراسات الحديثة المحققة التي عالجت العلاقات الدولية في الإسلام لضمان الدقة العلمية والالتزام بالمعايير الأكاديمية. (Kennedy, 2004)

المبحث الأول:

الإطار المفاهيمي والمنهجي للدراسة

يمثل هذا المبحث حجر الزاوية في بناء البحث، حيث يرسم الحدود المعرفية والمنهجية التي ستسير عليها الدراسة. فلا يمكن فهم طبيعة التفاعل الدبلوماسي بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية دون الوقوف



أولاً على المفاهيم التي حكمت عقلية صانعي القرار في كلا الجانبين، وتتبع الجذور التاريخية للعلاقة قبل صعود العباسيين، ثم تقييم الأدوات المصدرية التي نعتمد عليها في إعادة البناء التاريخي، وأخيراً توضيح المنهجية التحليلية المتبعة.

أولاً: مفهوم الدبلوماسية في الفكر السياسي الإسلامي والبيزنطي

تختلف المفاهيم الدبلوماسية باختلاف الخلفيات الحضارية والأيدولوجية للدول، وقد شكلت الرؤية الإسلامية والرؤية البيزنطية نموذجين متميزين متفاعلين في إدارة العلاقات الخارجية.

في الفكر السياسي الإسلامي، لم تكن الدبلوماسية بمعناها الحديث المؤسسي منفصلة عن الشريعة والأخلاق، بل كانت امتداداً لمبدأ "الدعوة" و"الجهاد" في أوسع معانيهما. فقد انقسم العالم في الفقه السياسي الإسلامي المبكر إلى "دار الإسلام" و"دار الحرب"، غير أن هذا التقسيم الثنائي لم يمنع من وجود مساحة مرنة للتعاود السلمي المؤقت عبر "الهدنة" أو "الموادة". يرى الفقهاء والمؤرخون المسلمون أن إرسال الرسل (السفراء) هو سنة نبوية ثابتة، كما في قصة النبي محمد ﷺ مع هرقل ملك الروم، مما أضفى شرعية دينية على ممارسة الدبلوماسية. وفي العصر العباسي، تطور المفهوم ليشمل بُعداً إدارياً أكثر تعقيداً، حيث أصبح "صاحب الرسائل" و"كاتب الديوان" عناصر فاعلة في صياغة الخطاب الدبلوماسي الذي يجمع بين البلاغة القرآنية والحجة العقلية. وكانت الدبلوماسية الإسلامية تركز على مبادئ الوفاء بالعهد، وحماية الرسل (حتى في حالات الحرب)، واستخدام اللغة كأداة ناعمة لتحقيق المكاسب السياسية دون اللجوء الفوري للسياف (الخضري، ١٩٦٨؛ زكار، ١٩٧٥).

أما في الجانب البيزنطي، فقد ورثت الإمبراطورية تراثاً دبلوماسياً رومانياً عريقاً يتسم بالدهاء والمراعة، وغالباً ما يُوصف الدبلوماسيون البيزنطيون بأنهم "أسياد الفن الدبلوماسي". كانت الدبلوماسية في القسطنطينية أداة استراتيجية بامتياز تهدف إلى الحفاظ على بقاء الإمبراطورية في وجه التحديات المتعددة. اعتمد البيزنطيون على نظام هرمي دقيق في استقبال السفراء، يستخدم الإبهار البصري والثروة الذهبية لإظهار قوة الإمبراطور (البايسليوس) وإخضاع الوفود الأجنبية نفسياً قبل بدء المفاوضات. كما استخدموا الدبلوماسية كأداة لـ "فرق تسد"، محاولين استمالة قبائل الحدود أو دعم فصائل داخلية في الدولة الإسلامية لإضعاف الخصم. وكان مفهوم "الشرعية الإلهية" للإمبراطور حاضراً بقوة في خطابهم الدبلوماسي، حيث كانوا ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم الورثة الشرعيين لروما وممثلين للمسيحية الأرثوذكسية، مما جعل تفاوضهم مع المسلمين يحمل طابعاً لاهوتياً وسياسياً في آن واحد. (Runciman, 1975; Shepard, 2008)

وعليه، فإن التقاء هذين المفهومين في العصر العباسي خلق ساحة دبلوماسية فريدة، تجمع بين الصرامة المبدئية الإسلامية والمرونة البراغماتية البيزنطية، وهو ما سنراه جلياً في تفاصيل المعاهدات والمراسلات اللاحقة.

ثانياً: تطور العلاقات الإسلامية-البيزنطية قبل العصر العباسي

لم تبدأ العلاقات بين الطرفين فجأة مع قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، بل كانت لها جذور عميقة تمتد إلى صدر الإسلام والعصر الأموي، مما شكل خلفية تاريخية أثرت في مسار العلاقات لاحقاً.

بدأ الاحتكاك المباشر منذ عهد النبي محمد ﷺ عبر الرسالة الموجهة إلى هرقل، ثم تحول إلى مواجهات عسكرية محدودة في عهد الخلفاء الراشدين، خاصة في معركة اليرموك التي أنهت الوجود البيزنطي في بلاد الشام. إلا أن الطابع الحربي تصاعد بشكل كبير في العصر الأموي، حيث تبنت الدولة الأموية سياسة "الجهاد المستمر" كركن أساسي لشرعيتها الداخلية ولتوسيع رقعة الإسلام. شن الأمويون حملات صيفية وشتوية



منتظمة ضد الأراضى البيزنطية، ووصلوا إلى حد حصار القسطنطينية مرتين (في عهد معاوية بن أبي سليمان وعهد سليمان بن عبد الملك)، مما دفع البيزنطيين إلى اعتماد استراتيجية دفاعية صارمة تعتمد على الأسوار الحصينة والأسطول اليوناني الناري.

في تلك الفترة، كانت العلاقات تقتصر غالباً على حالة الحرب شبه المستمرة، مع فترات هدنة قصيرة جداً تفرضها الظروف الميدانية أو الكوارث الطبيعية. ومع ذلك، بدأت تظهر بوادر للتفاعل غير العسكري، مثل تبادل الأسرى في بعض الأحيان، وبعض الاتصالات السرية بين قادة الثغور. لكن الغلبة كانت للنزعة التوسعية الأموية التي لم تمنح الدبلوماسية واسعاً كما حدث لاحقاً.

مع سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، حدث تحول نوعي في طبيعة هذه العلاقات. فالعباسيون، الذين ركزوا جهودهم الأولية على تثبيت أركان دولتهم الجديدة وقمع الثورات الداخلية (كالخوارج والعلويين)، اضطروا مؤقتاً لتغيير أولوياتهم الخارجية. كما أن نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد أبعد مركز القرار عن حدود الثغور المباشرة مع البيزنطيين، مما سمح بظهور فئة جديدة من القادة المحليين في المناطق الحدودية (مثل آل حميد في طرسوس) الذين أداروا العلاقة اليومية مع البيزنطيين بمرونة أكبر. هذا التحول من "التوسع المستمر" إلى "إدارة الحدود والدفاع عنها" فتح الباب أمام ازدهار الدبلوماسية، وظهور المعاهدات طويلة الأمد، وتبادل السفارات الرسمية بشكل لم يشهده العصر الأموي بنفس الكثافة والتنظيم (Haldon, 1997; Canard, 1968).

ثالثاً: أنواع المصادر التاريخية الإسلامية والبيزنطية وتقييمها النقدي

تعتمد مصداقية أي دراسة تاريخية على جودة مصادرهما ونقد الروايات الواردة فيها. وفي حالة العلاقات العباسية-البيزنطية، نجد أنفسنا أمام ثراء مصدرية مزدوجة تتطلب تحميصاً دقيقاً.

أ. المصادر الإسلامية: تنقسم المصادر الإسلامية إلى قسمين رئيسيين:

١. **مصادر السرد التاريخي العام:** مثل "تاريخ الرسل والملوك" للطبري، و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"تاريخ ابن خلدون". تتميز هذه المصادر بتسلسل زمني دقيق للأحداث، وتفصيل الحملات العسكرية والمعاهدات. غير أنها تعاني من تحيز طبيعي لصالح الخلفاء المسلمين، وتميل أحياناً إلى تضخيم الانتصارات الإسلامية وتقليل الخسائر، أو تجاهل الهزائم إلا إذا كانت كارثية ولا يمكن إنكارها. كما أن اهتمامها ينصب غالباً على الجانب العسكري على حساب التفاصيل الدقيقة للمفاوضات الدبلوماسية الداخلية.

٢. **مصادر الجغرافيا والبلدان والرحلات:** مثل "فتوح البلدان" للبلاذري، وكتب المسالك والممالك لابن خردادبه، ورحلات ابن فضلان (رغم تركيزه على مناطق أخرى، إلا أن منهجه مفيد). تقدم هذه المصادر معلومات قيمة حول تنظيم الثغور، وطرق السفارات، وجباية الجزية، وشروط المعاهدات التجارية، مما يعوض النقص في المصادر السردية فيما يخص الجانب الإداري والاقتصادي للعلاقات (البلاذري، ١٩٥٧).

ب. **المصادر البيزنطية:** تعتمد الدراسة على مؤرخين بيزنطيين كبار مثل "ثيوفانس المعترف" (Theophanes the Confessor) الذي غطى الفترة حتى أوائل القرن التاسع، و(جينيسوس Genesios) ومؤلفو مجموعة "تاريخ استمرار ثيوفانس". توفر هذه المصادر رؤية مغايرة تماماً للأحداث، تكشف عن الاستراتيجيات الدفاعية البيزنطية، ودور الإمبراطور في المفاوضات، والتفاصيل البروتوكولية للاستقبال في القسطنطينية. لكنها أيضاً لا تخلو من التحيز؛ فهي تمجد الأباطرة وتصورهم كأبطال مدافعين عن المسيحية،



وتصف المسلمين أحياناً بعبارات ازدراء ديني، وقد تغفل ذكر الهزائم البيزنطية أو تعزو أسبابها لعوامل خارجية أو خيانة داخلية. (Turtledove & Mango, 1982)

ج. التقييم النقدي: يتطلب التعامل مع هذه المصادر تطبيق منهج النقد التاريخي المقارن. فعند ذكر حدث معين (كمعاهدة أو سفارة)، يجب مقارنة الرواية الإسلامية بالنظيرة البيزنطية. فإذا اتفقتا في الجوهر رغم اختلاف التفاصيل، فإن ذلك يقوي صحة الرواية. أما إذا تعارضتا، فيجب البحث عن قرائن خارجية (مثل الآثار، أو العملات، أو وثائق برديّة إن وجدت) لترجيح كفة على أخرى. كما يجب مراعاة السياق الزمني لكتابة المصدر؛ فالمؤلف الذي كتب بعد قرن من الحدث قد يخلط بين الوقائع أو يسقط أحداث عصره على الماضي. إن الجمع بين هذين الضفين المصدرين يسمح ببناء صورة ثلاثية الأبعاد للعلاقة، تكشف عن الحقيقة التي قد تخفيها كل رواية بمفردها. (Robinson, 1993)

رابعاً: منهج الدراسة وأسس المقارنة والتحليل

لتحقيق أهداف هذا البحث ومعالجة إشكاليته، اعتمد الباحث على منهجية مركبة تجمع بين عدة مناهج علمية رصينة:

١. **المنهج التاريخي التحليلي:** وهو المنهج الأساسي، الذي يعتمد على جمع البيانات من المصادر الأولية والثانوية، وفرزها زمنياً وموضوعياً، ثم تحليلها لفهم الأسباب والنتائج. لا يقتصر هذا المنهج على سرد الأحداث، بل يغوص في تحليل الدوافع السياسية والدينية والاقتصادية التي وراء كل حركة دبلوماسية.

٢. **المنهج المقارن:** يُعد هذا المنهج ركيزة أساسية في هذه الدراسة نظراً لطبيعة الموضوع الذي يتضمن طرفين مختلفين ثقافياً ودينيّاً. سيتم تطبيق المقارنة على مستويات متعددة: مقارنة الخطاب الدبلوماسي في الرسائل المتبادلة، مقارنة بنود المعاهدات من منظور كل طرف، ومقارنة الروايات التاريخية لنفس الحدث كما سلف الذكر. يساعد هذا المنهج في إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف، وكشف مدى التأثير المتبادل بين النظامين السياسيين.

٣. **منهج تحليل المحتوى (للخطاب الدبلوماسي):** سيتم تطبيق هذا المنهج على نصوص الرسائل والمراسلات المسجلة في المصادر. سيُحلّل اللغة المستخدمة، والألقاب، والحجج الشرعية أو اللاهوتية المستشهد بها، ونبرة الخطاب (هل هي تهديدية، استعطافية، أم تكافلية؟). هذا التحليل يكشف عن ميزان القوى النفسي والسياسي في كل مرحلة من مراحل العلاقة.

٤. **أسس التحليل النقدي للمصادر:** لن يتم قبول أي رواية تاريخية بشكل مسلم به، بل ستخضع لعملية تمحيص تشمل فحص سند الرواية (من رواها؟ ومتى؟ وما هي مصادره؟) ومنتها (هل تتعارض مع حقائق ثابتة؟ هل تتفق مع سياق العصر؟). وسيتم الاعتماد على قاعدة "التوافق الجزئي" بين المصادر المتعارضة لاستنتاج الحقيقة المرجحة.

إن توظيف هذه المناهج مجتمعة يضمن للدراسة موضوعية علمية، ويتيح لها تجاوز السرد التقليدي لتقديم قراءة تحليلية عميقة للعلاقات الدبلوماسية بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، كاشفاً عن الآليات المعقدة التي حكمت تفاعل حضارتين عظيمتين لقرون من الزمان.

المبحث الثاني:

الأسس السياسية والدينية للعلاقات العباسية-البيزنطية



تشكل الأسس السياسية والدينية الهيكل العظمي الذي استندت إليه العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية. لم تكن هذه العلاقات مجرد تفاعلات عابرة تفرضها ظروف الميدان العسكري فحسب، بل كانت نتاجاً لرؤى أيديولوجية عميقة، وتحولات جيوسياسية كبرى، وصراعات شرعية معقدة. يهدف هذا البحث إلى تفكيك هذه الأسس من خلال تحليل أثر الثورة العباسية في تغيير بوصلة السياسة الخارجية، ودور العامل الديني في صياغة الخطاب المتبادل، وإشكاليات الاعتراف المتبادل، وأخيراً الدور المحوري للحدود والثغور كأداة ضغط دبلوماسي وعسكري.

أولاً: أثر التحول من الدولة الأموية إلى الدولة العباسية في طبيعة العلاقات

مثل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م نقطة تحول مفصلية في تاريخ العلاقات الإسلامية-البيزنطية، ليس فقط بتغيير السلالة الحاكمة، بل بتغيير الفلسفة الاستراتيجية للدولة الإسلامية ككل.

في العصر الأموي، كانت الدولة تتمحور حول مفهوم "الدولة العربية" التوسعية، حيث كانت دمشق قريبة جغرافياً من الثغور البيزنطية، مما جعل الحرب المستمرة (الجهاد الصيفي والشتوي) جزءاً لا يتجزأ من هوية الدولة وشرعيتها الداخلية. كان الهدف الأموي واضحاً: اختراق الدفاعات البيزنطية والاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وهو ما تجلّى في حملات معاوية وسليمان بن عبد الملك. كانت الدبلوماسية في ذلك العهد هامشية، وغالباً ما كانت تُستخدم كأداة تكتيكية مؤقتة أثناء الاستعداد للحرب أو بعد الهزائم الكبيرة.

مع صعود العباسيين، حدث تغير جذري في الأولويات. فقد اعتمد العباسيون في ثورتهم على دعم الفرس والعناصر غير العربية في خراسان والعراق، ونقلوا عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد. هذا الانتقال الجغرافي أبعد مركز القرار عن خط المواجهة المباشر مع البيزنطيين في الأناضول، وحول البؤرة الاستراتيجية نحو الشرق (خراسان وآسيا الوسطى) لمواجهة التهديدات هناك ولتثبيت أركان الدولة الجديدة داخلياً. نتيجة لذلك، تحولت السياسة الخارجية العباسية من سياسة "التوسع العدواني المستمر" إلى سياسة "إدارة الحدود والدفاع الاستراتيجي".

لم يعد الخلفاء العباسيون الأوائل (كالسفاح والمنصور والمهدي) ينظرون إلى الغزو العميق للأراضي البيزنطية كهدف وجودي يومي، بل أصبح التركيز منصّباً على تأمين الحدود، وردع الغارات البيزنطية الانتقامية، والحفاظ على هيبة الخلافة. هذا التحول سمح بظهور مساحة أوسع للدبلوماسية؛ فالعباسيون كانوا أكثر استعداداً لقبول الهدن طويلة الأمد إذا ما خدمت مصالحهم الداخلية أو وفرت لهم الوقت لقمع الثورات (كثورة الزنج أو حركات العلويين). كما أن الطابع الكوني للدولة العباسية، التي ضمت أعراقاً وثقافات متنوعة، جعل نظرتها للآخر (البيزنطي) أقل حدة من الناحية العرقية مقارنة بالنظرة الأموية، وإن ظلت الفجوة الدينية قائمة. وبالتالي، فإن التحول العباسي نقل العلاقة من حالة "الحرب الشاملة" إلى حالة "الصراع المدروس" الذي تتخلله فترات من التفاوض والتبادل الدبلوماسي المنظم (Kennedy, 2004; Zakar, 1975).

ثانياً: البعد الديني وأثره في الخطاب السياسي المتبادل

ظل الدين هو الإطار المرجعي الأساسي الذي يُفسر من خلاله كلا الطرفين علاقته بالآخر، وكان له تأثير بالغ في صياغة الخطاب السياسي والدبلوماسي. لم تكن الحروب مجرد صراع على الأرض والموارد، بل كانت تُصوّر على أنها صراع بين "حق وباطل"، وبين "دار الإسلام ودار الحرب".

في الخطاب العباسي، استُخدمت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتبرير الحملات العسكرية ولرفع معنويات الجنود في الثغور. كان الخليفة يُلقب بـ "أمير المؤمنين" و"خليفة الله في أرضه"، مما أضفى طابعاً قدسياً



على قراراته السياسية والعسكرية. في المراسلات الموجهة إلى الأباطرة البيزنطيين، كان الدعاة والكتاب العباسيون يستخدمون لغة دعوية واضحة، داعين الإمبراطور إلى اعتناق الإسلام أو دفع الجزية كعلومة على الخضوع السياسي والديني. ومع ذلك، أظهر العباسيون براغماتية دينية في التعامل العملي؛ فقد تعاملوا مع البيزنطيين كشركاء في المعاهدات عندما اقتضت المصلحة ذلك، مستندين إلى مبدأ الوفاء بالعهد في الإسلام حتى مع غير المسلمين.

من الجانب البيزنطي، كان الإمبراطور يُعتبر نائب المسيح على الأرض وحامي الأرثوذكسية. كانت الحروب ضد المسلمين تُقدّم على أنها حروب مقدسة للدفاع عن المسيحية وعن التراث الروماني المسيحي. في خطابهم الدبلوماسي، كان البيزنطيون يصرون على استخدام ألقاب فخمة للخلفاء أحياناً لكسب ودّهم، لكنهم في نفس الوقت كانوا يرفضون الاعتراف بأي مساواة دينية بين الإسلام والمسيحية. غالباً ما كانت المفاوضات تتعلق بحماية الأماكن المقدسة المسيحية في الأراضي الإسلامية (مثل كنيسة القيامة في القدس)، أو بضمان حرية الحجيج، وهي قضايا ذات بُعد ديني صرف أصبحت جزءاً من جدول الأعمال الدبلوماسي.

كما لعب الجدل اللاهوتي دوراً في العلاقات؛ ففي فترات السلم، كانت تُعقد مناظرات بين علماء المسلمين ولاهوتيين البيزنطيين في بلاط الخليفة أو الإمبراطور، وكانت هذه المناظرات أحياناً تمهد الطريق لتقارب سياسي أو تكون وسيلة لاستعراض القوة الفكرية لكل طرف. كان الدين سيفاً ذا حدين: مصدرًا للتوتر والصراع الأيديولوجي، وفي الوقت ذاته جسراً للتواصل عبر القضايا المشتركة مثل حماية المقدسات وتبادل الرهبان والعلماء. (Treadgold, 1997; El-Cheikh, 2004)

ثالثاً: مفهوم الشرعية والاعتراف السياسي بين الطرفين

تعد قضية "الشرعية" و"الاعتراف المتبادل" من أكثر النقاط إشكالية في العلاقات العباسية-البيزنطية. فمن الناحية النظرية، رفض كل طرف الاعتراف بشرعية الآخر كندّ متساوٍ في المرتبة الكونية.

بالنسبة للخلافة العباسية، فإن فكرة "الخليفة" تستلزم السيادة على العالم كله نظرياً، ولا يمكن الاعتراف بوجود إمبراطور آخر يشاركه هذه السيادة إلا كواقع مؤقت مفروض بقوة الظروف (أمر واقع). لذلك، في الوثائق الرسمية والمراسلات الافتتاحية، كان العباسيون يخاطبون الأباطرة بلهجة أمرية أو دعوية، ويتجنبون منحهم ألقاباً توحى بالمساواة المطلقة في السيادة الروحية.

في المقابل، تمسك البيزنطيون بفكرة أنهم "الروم" الوحيدين الشرعيين، ورثة الإمبراطورية الرومانية القديمة، وأن الخلفاء المسلمين هم مجرد "ملوك العرب" أو زعماء قبائل اغتصبوا أراضي رومانية. رفض البلاط البيزنطي لفترات طويلة منح الخلفاء ألقاباً إمبراطورية كاملة، محاولاً تقليل شأنهم الدبلوماسي.

ومع ذلك، فرضت الواقعية السياسية تعديلات على هذا الموقف النظري الصلب. فعند الحاجة إلى توقيع معاهدات سلام أو تبادل أسرى، اضطر الطرفان إلى ممارسة شكل من أشكال "الاعتراف الضمني". يتجلى ذلك في تبادل السفراء بمستويات رفيعة، وفي قبول بنود المعاهدات التي تنص على التزامات متبادلة بين طرفين متساويين في الالتزام القانوني بالاتفاقية. كما أن تبادل الهدايا الفاخرة بين الخلفاء والأباطرة كان يعكس اعترافاً متبادلاً بالقوة والثروة والمكانة الدولية، حتى لو لم يُصرح به لفظياً في الوثائق. لقد تطور هذا الاعتراف الضمني ليصبح عرفاً دبلوماسياً مقبولاً، حيث أدرك كل طرف أن بقاءه واستقراره يعتمدان على التعامل مع الآخر كقوة عظمى لا يمكن تجاهلها أو إلغاؤها تماماً. (Lilie, 1976; Bonner, 2008)

رابعاً: دور الحدود والثغور في رسم معالم العلاقة



لم تكن الحدود بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية خطوطاً ثابتة ومغلقة، بل كانت مناطق حيوية ونشطة لعبت دوراً محورياً في تشكيل طبيعة العلاقات. امتدت هذه المنطقة على طول جبال طوروس والأنطاكية وصولاً إلى أرمينيا، وشملت مدناً حصينة مثل طرسوس، والمطية، ومرعش، والتي عُرفت بـ "الثغور".

كانت الثغور بمثابة صمام أمان ومنطقة عازلة، ولكنها أيضاً كانت مسرحاً للتفاعل اليومي. على عكس الصورة النمطية لمنطقة حرب دائمة، شهدت الثغور فترات من التعايش السلمي النسبي، خاصة أثناء سريان المعاهدات. كان قادة الثغور (الولاة المحليين) يتمتعون بصلاحيات واسعة في إدارة الشؤون اليومية مع نظرائهم البيزنطيين، بما في ذلك التفاوض على هدن محلية صغيرة، وتنظيم عمليات تبادل الأسرى بشكل روتيني، وحتى السماح ببعض التبادل التجاري عبر الأسواق الحدودية.

أثرت طبيعة الثغور في الدبلوماسية المركزية؛ فكثيراً ما كانت الخروقات المحلية أو الغارات غير المصرح بها من قبل قادة الثغور تدفع الطرفين المركزيين (بغداد والقسطنطينية) إلى التدخل دبلوماسياً لاحتواء الموقف ومنع تصاعده إلى حرب شاملة. كما أن نظام "الجهاد الموسمي" (الصوائف والشواتي) الذي نظمته العباسيون خلق إيقاعاً منتظماً للعلاقة؛ حيث كانت الحملات العسكرية تتوقف في الشتاء أو في فترات معينة، مما يفتح نافذة زمنية ثابتة للمفاوضات وتجديد الاتفاقيات.

علاوة على ذلك، كانت الثغور قنوات للتبادل الثقافي والعسكري؛ فمن خلال الأسرى والمجنبيين والمرترقة الذين انتقلوا عبر هذه الحدود، انتقلت التقنيات العسكرية (كاستخدام المجانيق والأسلحة النارية لاحقاً)، والأساليب الإدارية، وحتى التأثيرات الفنية والمعمارية. لم تكن الحدود جداراً فاصلاً فقط، بل كانت غشاءً نفذاً سمح بتدفق البشر والأفكار والسلع، مما جعل العلاقة العباسية-البيزنطية علاقة معقدة من التشابك والصراع في آن واحد. (Canard, 1968; Whittow, 1996).

ختاماً لهذا المبحث، يمكن القول إن الأسس السياسية والدينية للعلاقات العباسية-البيزنطية كانت مزيجاً ديناميكياً من الثبات الأيديولوجي والمرونة البراغماتية. فبينما ظل الإطار الديني والشرعي مصدراً للتباين والتنافس، فإن التحول العباسي في الاستراتيجية، وضرورات الواقع الجيوسياسي في الثغور، فرضا نمطاً من التفاعل الدبلوماسي المنظم الذي تجاوز مجرد الصراع العسكري إلى إدارة معقدة لشؤون قوتين عظميين متجاورتين.

المبحث الثالث: آليات الدبلوماسية والتمثيل السياسي بين الطرفين

بعد استعراض الأسس الفكرية والسياسية التي حكمت العلاقة بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، ينتقل هذا المبحث إلى الغوص في الآليات العملية والتطبيقية التي جسدت هذه العلاقات على أرض الواقع. لم تكن الدبلوماسية في العصر الوسيط مجرد أفكار نظرية، بل كانت ممارسة مؤسسية دقيقة تنظمها بروتوكولات صارمة، وتنفذها بعثات رسمية، وتوثق عبر معاهدات ومراسلات تحمل في طياتها دلالات سياسية عميقة. يُعد فهم هذه الآليات مفتاحاً لإدراك كيف استطاع الطرفان إدارة صراع دام لقرون مع الحفاظ على قنوات اتصال مفتوحة تمنع الانزلاق الدائم نحو الفوضى أو الإبادة المتبادلة.

أولاً: السفارات والبعثات الرسمية

شكلت السفارات العمود الفقري للتواصل المباشر بين بغداد والقسطنطينية. لم يكن إرسال السفراء حدثاً عارضاً، بل كان مؤسسة راسخة تخضع لضوابط دقيقة من حيث الاختيار والمهمة والصلاحيات.



في الجانب العباسي، كان اختيار السفير (الرسول) يتم بعناية فائقة. غالباً ما كان يُختار من كبار الكتاب، أو الفقهاء المتمكنين من اللغة والحجة، أو القادة العسكريين ذوي الخبرة بالحدود إذا تعلق الأمر بمفاوضات عسكرية حساسة. وكان السفير يحمل "العهد" أو "الكتاب" الموقع من الخليفة، والذي يحدد صلاحياته بدقة؛ هل هو مفاوض مفوض بالتوقيع، أم مجرد ناقل للرسائل؟ تشير المصادر إلى أن السفراء العباسيين كانوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية كاملة، حيث كان الاعتداء عليهم يُعد خرقاً للقانون الدولي آنذاك وسبباً كافياً للحرب. وقد اشتهرت بعثات مثل سفارة يحيى بن خالد البرمكي في عهد هارون الرشيد، والتي لم تكن فقط لنقل الرسائل بل لرصد أحوال الإمبراطورية البيزنطية عسكرياً وسياسياً، مما يعكس وظيفة الاستخبارات الضمنية للسفارات. (Canard, 1968; Zakar, 1975)

أما في الجانب البيزنطي، فكان نظام السفارات أكثر تعقيداً وهيكلية، نظراً لتراثهم الإداري الروماني. كان البيزنطيون يرسلون بعثات تتكون من دبلوماسيين محترفين ينتمون غالباً إلى طبقة الأرسقراطية أو رجال الدين العليا، ويرافقهم مترجمون (ترجمان) وموظفون متخصصون في تسجيل التفاصيل. كانت مهام السفارات البيزنطية تتراوح بين التفاوض على الهدن، وشراء السلام عبر دفع tributes (في فترات الضعف)، وتنظيم تبادل الأسرى، وأحياناً طلب المساعدة العسكرية ضد أعداء مشتركين (مثل البلغار أو العرب في صقلية). وقد برعت الدبلوماسية البيزنطية في استخدام السفارات كأداة لكسب الوقت وإطالة أمد المفاوضات لإرهاق الخصم أو انتظار تغير الظروف السياسية في بغداد. (Shepard, 2008)

ثانياً: المعاهدات والهدن واتفاقيات تبادل الأسرى

مثلت المعاهدات والهدن الإطار القانوني الذي ينظم فترات السلم أو وقف إطلاق النار بين الطرفين. وكانت هذه الاتفاقيات تأخذ أشكالاً متعددة حسب الظروف الميدانية.

الهدن: كانت الهدن تُبرم عادة لفترات محددة (سنة، ثلاث سنوات، عشر سنوات، أو حتى مدى الحياة نظرياً). وكانت تنص صراحة على وقف العمليات العسكرية الهجومية من كلا الجانبين، مع السماح أحياناً بالعمليات الدفاعية ردّاً على أي خرق. ومن أشهر الهدن تلك التي عُقدت في عهد الخليفة المهدي وفي فترات لاحقة مع الإمبراطورة إيرين والإمبراطور نقفور الأول. كانت بنود الهدن تشمل غالباً تحديد خطوط التماس وعدم بناء تحصينات جديدة في مناطق معينة، مما يعكس وعياً جيوسراتيجياً عالياً لدى المفاوضين (Haldon, 1997).

تبادل الأسرى: يُعد موضوع تبادل الأسرى من أكثر الجوانب الإنسانية والتنظيمية في العلاقات العباسية-البيزنطية. نظراً لكثرة الحروب، تراكم أعداد كبيرة من الأسرى في سجون الطرفين. ولحل هذه المعضلة، تم تطوير آلية دورية ومنظمة لتبادل الأسرى، غالباً ما كانت تتم في مواقع حدودية محددة مثل نهر "لاموس" (Lamos) في قيليقية. كانت العملية تجري تحت إشراف لجان مشتركة، وتتبع مبدأ "رجل برجل" أو وفقاً لمعايير محددة تأخذ في الاعتبار الرتبة العسكرية والعمر والجنس. وقد دونت المصادر تفاصيل مؤثرة لهذه المراسم، حيث كان الفصل بين العائلات يسبب مآسي إنسانية، مما دفع المفاوضين أحياناً لإدخال بنود استثنائية لجمع شمل العائلات. هذه الاتفاقيات تدل على وجود قانون حرب غير مكتوب يحترم الكرامة الإنسانية إلى حد ما، ويتجاوز حدود العداء الديني. (Brooks, 1903; Lilie, 1976)

المعاهدات التجارية: رغم هيمنة الطابع العسكري، إلا أن هناك إشارات إلى اتفاقيات سمحت بمرور التجار والبضائع في فترات السلم، خاصة في المناطق الحدودية، مما ساهم في استقرار الاقتصاد المحلي للطرفين.

ثالثاً: المراسلات السياسية وتحليل خطابها



كانت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والأباطرة أداة دبلوماسية رئيسية، تحمل في صياغتها رسائل سياسية ونفسية تتجاوز المحتوى الظاهري.

خطاب القوة والوعيد: في فترات القوة العباسية (كما في عهد هارون الرشيد والمأمون)، اتسم خطاب الرسائل بالعزة والسيادة. كان الخلفاء يبدأون رسائلهم بالبسملة والدعوة إلى الإسلام، ويستخدمون ألقاباً تؤكد تفوقهم (مثل "أمير المؤمنين")، بينما يخاطبون الإمبراطور بألقاب أقل مرتبة أو يذكرونه بموقعه كخاضع محتمل. رسالة هارون الرشيد الشهيرة لنقفور ("من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم (...تعد نموذجاً صارخاً لهذا الخطاب الذي يمزج بين التهديد العسكري والاحتقار الأيديولوجي لدفع الخصم نحو الخضوع أو دفع الجزية). (Al-Tabari, 1985)

خطاب المساواة والمجاملة: في فترات أخرى، خاصة عندما كانت الدولة العباسية منشغلة داخلياً أو عندما كانت البيزنطة في قمة قوتها (كالعهد المقدوني)، تغير نبرة الخطاب لتصبح أكثر دبلوماسية ورسمية. بدأت تظهر عبارات المجاملة المتبادلة، والاعتراف الضمني بالقوة العسكرية للطرف الآخر، واستخدام ألقاب فخمة للإمبراطور البيزنطي تسهياً للمفاوضات. كان الكتاب العباسيون مهرة في استخدام البلاغة القرآنية والشعر العربي لإبهار المستقبل البيزنطي، بينما رد البيزنطيون بخطاب روماني رصين يركز على القانون والنظام والوراثة الإمبراطورية.

تحليل المضمون: تكشف دراسة هذه الرسائل عن تطور في الوعي الدبلوماسي؛ فبينما ظلت الثوابت الدينية حاضرة، أصبحت اللغة أداة مرنة للتكيف مع موازين القوى المتغيرة. كانت الرسائل تُحفظ في دواوين الخلافة والقصور الإمبراطورية كوثائق تاريخية وسياسية مرجعية، مما يدل على أهميتها البالغة (El-Cheikh, 2004).

رابعاً: البروتوكول الدبلوماسي وتنظيم الاستقبال والتفاوض

لم يكن استقبال السفراء إجراءً شكلياً، بل كان عرضاً للقوة النفسية والثقافية يهدف إلى إبهار الوفد الزائر وإشعاره بعظمة الدولة المضيئة.

البروتوكول البيزنطي: اشتهر البلاط البيزنطي ببروتوكوله المعقد والمبهر الذي وُصف بأنه "مسرح للقوة". عند وصول السفير المسلم، كان يستقبل بسلسلة من المراحل الدقيقة: المرور عبر بوابات محروسة، ومشاهدة آلات ميكانيكية متحركة (كالأسود الذهبية التي تزار والطيور التي تغرد) في قاعة العرش، وارتداء الحراس ملابس فاخرة تتغير ألوانها، كل ذلك بهدف خلق جو من الرهبة قبل مثل السفير أمام الإمبراطور الذي يظهر فجأة بملابس الإمبراطورية الكاملة بعد أن كان يجلس على عرش بسيط. كان الهدف حرمان السفير من تركيزه وجعله يشعر بصغر شأن دولته مقارنة بعظمة روما الخالدة. كما كان تقديم الولائم الفاخرة والهدايا الثمينة جزءاً من استراتيجية "القوة الناعمة" البيزنطية. (McCormick, 1986)

البروتوكول العباسي: في المقابل، اعتمد العباسيون في استقبال الوفود البيزنطية على إظهار ثروة الخلافة واتساع رقعتها وقوتها العسكرية. كان الاستقبال يتم في قصور بغداد أو سامراء، مع مواكب ضخمة من الجنود النظاميين (كالأتراك والخراسانيين) لاستعراض القوة العسكرية. كان الخليفة يجلس في مجلس عام يحضره الوزراء والقادة، ويتم تقديم الهدايا التي تعكس فنون الإسلام وصناعاته (كالمنسوجات، والسجاد، والأواني المعدنية). ركز العباسيون على إظهار التنظيم الإداري الدقيق والوفرة الاقتصادية كدليل على شرعية الخلافة وازدهارها تحت ظل الإسلام.



سير المفاوضات: كانت جلسات التفاوض تجري في أجواء رسمية صارمة. كان المترجمون يلعبون دوراً حاسماً، وأي خطأ في الترجمة قد يؤدي إلى أزمة دبلوماسية. كانت المفاوضات تسجل بدقة من قبل كتاب الطرفين، ويتم التوقيع على المحاضر النهائية بخواتم رسمية. وفي حال فشل المفاوضات، كان السفراء يعودون سالمين بفضل الحصانة الدبلوماسية، ليبدأ فصل جديد من المواجهات العسكرية أو محاولات دبلوماسية لاحقة.

ختاماً لهذا البحث، يتضح أن الآليات الدبلوماسية بين العباسيين والبيزنطيين كانت نظاماً معقداً وناضجاً، يجمع بين الصرامة في المبادئ والمرونة في التطبيق. لقد استطاع الطرفان عبر السفارات، والمعاهدات، والمراسلات، والبروتوكولات، إدارة علاقة شائكة جمعت بين الصراع الوجودي والتعاون الضروري، مما ترك إرثاً دبلوماسياً غنياً في تاريخ العلاقات الدولية في العصور الوسطى.

المبحث الرابع:

أبعاد التعاون والصراع في العلاقات الثنائية

تتميز العلاقات الدولية، وخاصة تلك الممتدة لقرون بين قوتين عظميين كالعباسية والبيزنطية، بأنها نسيج معقد من الخيوط المتشابكة التي تجمع بين الصراع الدموي والتعاون الهادئ. لم تكن العلاقة بين بغداد والقسطنطينية أحادية البعد؛ فبينما كانت السيوف تصطدم على حدود طوروس، كانت القوافل التجارية تعبر الجبال، وكانت الكتب والمخطوطات تنتقل بين المكتبات، وتتأثر المعادلة باستمرار بتدخل قوى إقليمية ثالثة. يهدف هذا البحث إلى تفكيك هذه الأبعاد المتعددة، مبرزاً كيف شكلت الحروب الدبلوماسية، وكيف ازدهر التجارة والعلم رغم العداء، وكيف أثرت المتغيرات الإقليمية في مسار هذه العلاقة التاريخية.

أولاً: فترات التوتر والحروب وأثرها في المسار الدبلوماسي

شكلت الحروب وفترات التوتر المحرك الرئيسي الذي فرض إعادة تشكيل الخريطة الدبلوماسية بين الطرفين مراراً وتكراراً. لم يكن الصراع مجرد مواجهات عسكرية عشوائية، بل كان أداة ضغط سياسي تهدف إلى إجبار الخصم على طاولة المفاوضات بشروط أكثر ملاءمة.

في فترات القوة العباسية، كما حدث في عهد الخلفاء الأقوياء مثل هارون الرشيد (193-170 هـ) والمأمون (218-198 هـ)، تحولت الحروب إلى حملات منهجية عميقة داخل الأراضي البيزنطية. كانت هذه الحملات لا تهدف فقط إلى الغنائم، بل إلى إضعاف الإمبراطورية اقتصادياً وعسكرياً لإجبارها على دفع الجزية أو قبول شروط هدنة مجحفة. في هذه الفترات، كان المسار الدبلوماسي يتجمد أو يصبح أحادي الاتجاه، حيث تتحول الرسائل الدبلوماسية إلى إنذارات نهائية (Ultimatums). مثل حصار هرقلية وزحلة في عهد المأمون ذروة هذا الضغط، مما اضطر الإمبراطور ميخائيل الثاني للتفاوض من موقع ضعف نسبي.

على النقيض من ذلك، في فترات الضعف الداخلي للدولة العباسية (كما في عصر "الفتنة الكبرى" أو سيطرة الأتراك على مقاليد الأمور في منتصف القرن الثالث الهجري)، انقلب ميزان القوى بشن البيزنطيين، خاصة تحت قيادة أباطرة سلالة المقدونيين مثل باسيل الأول ونقفور فوكاس، هجمات مضادة استردوا فيها مناطق حدودية مهمة وهددوا الثغور الإسلامية. في هذه المراحل، تغير دور الدبلوماسية ليصبح أداة دفاعية للعباسيين، الذين سعوا لشراء السلام أو تجديد الهدن بتنازلات أكبر، بما في ذلك الإفراج عن أعداد كبيرة من الأسرى دون مقابل متكافئ أحياناً.

الأهم من ذلك، أن الحروب كانت تخلق "ضرورة دبلوماسية". فبعد كل حملة كبرى، كان الطرفان يدركان استحالة الاستمرار في القتال إلى ما لا نهاية بسبب الموارد البشرية والمالية. هنا، تبرز الدبلوماسية كأداة لـ



"إدارة الخروج" من الحرب، حيث تُصاغ المعاهدات لتثبيت مكاسب الميدان وتحويلها إلى واقع قانوني، كان التوتر والحرب هما المحفز لتطوير آليات دبلوماسية أكثر دقة لتنظيم وقف إطلاق النار ومنع التصعيد غير المحسوب. (Kennedy, 2004; Treadgold, 1997).

ثانياً: التعاون الاقتصادي والتجاري بين الجانبين

رغم حالة الحرب شبه المستمرة، لم تنقطع شرايين التجارة بين العالم الإسلامي والإمبراطورية البيزنطية تماماً، بل تكيفت مع الظروف السياسية لتصبح قناة حيوية للتعاون الضمني. كانت الحدود، رغم كونها خطوط تماس عسكري، أيضاً أسواقاً نشطة للتبادل التجاري.

اعتمد الاقتصاد البيزنطي بشكل كبير على الواردات الإسلامية، خاصة في مجالات المنسوجات الفاخرة (كالحرير والقطن)، والسجاد، والعمود، والتوابل التي كانت تمر عبر الأراضي الإسلامية قادمة من الشرق الأقصى. في المقابل، صدرت البيزنطة إلى الدولة العباسية الأخشاب (المهمة لبناء السفن في موانئ الشام ومصر)، والمعادن، والزجاج، وبعض المنتجات الزراعية من الأناضول. تشير المصادر التاريخية إلى وجود اتفاقيات ضمنية أو صريحة تسمح بمرور التجار حتى في فترات التوتر المحدود، حيث كان كلا الطرفين يدرك أن قطع التجارة تماماً سيضر باستقرارهما الداخلي واقتصادياتهما المحلية.

كانت الموانئ البحرية في البحر المتوسط، مثل الإسكندرية وطرابلس وأنطاكية، نقاط التقاء حيوية للتجار من الجنسين. كما أن تجارة الرقيق (التي كانت جزءاً من النظام الاقتصادي آنذاك) شهدت تدفقاً عبر الحدود، سواء عبر الأسرى في الحروب أو عبر شبكات تجارية منظمة. وقد ساهم استقرار الدينار الذهبي العباسي والصلبوس البيزنطي كعملة عالميتين موثقتين في تسهيل هذه التبادلات، حيث تم التعامل بهما في الأسواق الحدودية وحتى في الداخل. إن استمرار هذا التدفق التجاري يدل على براغماتية اقتصادية تجاوزت العداوات الدينية والسياسية، حيث أدرك الطرفين أن الازدهار الاقتصادي يساهم في استقرار الحكم وتمويل الجيوش. (Lopez, 1971; Ashtor, 1976).

ثالثاً: التبادل الثقافي والعلمي وأثره الحضاري

ربما يكون البعد الثقافي والعلمي هو الأكثر إثارة وإبداعاً في هذه العلاقات، حيث مثل جسراً حضارياً ربط بين عقلية بغداد الفلسفية وعقلية القسطنطينية التراثية. لم يكن التبادل مقتصرًا على السلع المادية، بل امتد ليشمل الأفكار، العلوم، والفنون.

شهد العصر العباسي، وخاصة في عهد المأمون وإنشاء "بيت الحكمة"، حركة ترجمة نشطة للتراث اليوناني إلى العربية. اعتمد المترجمون المسلمون (كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة) بشكل مباشر على المخطوطات اليونانية التي كانت محفوظة في مكتبات القسطنطينية والأديرة في سوريا وفلسطين. في كثير من الأحيان، كانت هناك اتصالات دبلوماسية رسمية تطلب فيها الخلافة من الإمبراطور البيزنطي إرسال مخطوطات نادرة في الفلسفة، الطب، الهندسة، والرياضيات. قصة طلب المأمون من الإمبراطور ثيوفيلوس إرسال نسخة من كتاب "المجسطي" لبطليموس هي مثال بارز على كيف استخدمت الدبلوماسية لخدمة العلم.

في المقابل، تأثر الفن والعمارة البيزنطية بالعناصر الإسلامية، خاصة في فترات السلم أو عبر الاحتكاك في المناطق الحدودية. ظهرت تأثيرات الزخرفة الإسلامية، واستخدام الأجر المزجج، وبعض العناصر المعمارية في القصور البيزنطية والكنائس. كما انتقلت تقنيات طبية وعلمية من العالم الإسلامي إلى البيزنطة، حيث ترجم بعض العلماء البيزنطيين أعمال ابن سينا والرازي لاحقاً.



هذا التبادل لم يقتصر على النخبة؛ فالأسرى والعلماء الذين انتقلوا بين البلدين لعبوا دور " السفير الثقافي"، ناقلين معهم المعارف والتقنيات. لقد خلق هذا التفاعل بيئة حضارية مشتركة في حوض المتوسط الشرقي، حيث تنافس الطرفان ليس فقط بالسيف، بل بالإنتاج الفكري والعلمي، مما أغنى التراث الإنساني العالمي (Gutas, 1998; Rosenthal, 1975).

رابعاً: تأثير القوى الإقليمية في طبيعة العلاقة

لم تكن العلاقة العباسية-البيزنطية معزولة في فراغ، بل كانت تتأثر بشدة بوجود قوى إقليمية ثالثة acted كمتغير مستقل في المعادلة الاستراتيجية.

الدول المستقلة في الأطراف: مع تراجع السلطة المركزية العباسية، ظهرت دول مستقلة أو شبه مستقلة على الحدود، مثل الحمدانيين في حلب والموصل، والطولونيين والإخشيديين في مصر والشام. هؤلاء الحكام المحليون كانوا غالباً أكثر عدوانية تجاه البيزنطيين من الخليفة في بغداد، أو أكثر استعداداً للتفاوض المباشر لتحقيق مصالحهم الخاصة. تحالفات الحمدانيين مع بعض الفصائل البيزنطية ضد فصائل أخرى، أو صراعاتهم المستقلة، غيرت ديناميكية الحدود وجعلت الدبلوماسية المركزية في بغداد أحياناً تابعة لوقائع الميدان المحلي.

القوى الشمالية والشرقية: لعب ظهور قوى جديدة مثل الروس (في الشمال) والبلغار دوراً محورياً. عندما اشتد خطر البلغار على القسطنطينية، كان الأباطرة البيزنطيون يسعون جاهدين لتحسين علاقاتهم مع العباسيين لتأمين الجبهة الشرقية وتركيز جهودهم في أوروبا. والعكس صحيح؛ فعندما تهدد القبائل التركية أو الحركات الداخلية ببغداد، كان العباسيون يبحثون عن هدنة مع البيزنطيين.

الصلبيون لاحقاً: وفي مراحل لاحقة من العصر العباسي المتأخر، بدأ ظهور القوى الصليبية كعامل جديد أعاد رسم التحالفات، حيث وجد البيزنطيون والمسلمون أنفسهم أحياناً في خندق واحد الخطر الصليبي المشترك، مما فتح أبواباً جديدة للتعاون الدبلوماسي والعسكري غير المسبوق.

ختاماً لهذا المبحث، يتضح أن العلاقات العباسية-البيزنطية كانت ظاهرة ديناميكية متعددة الأوجه. فبينما رسمت الحروب الحدود السياسية والعسكرية، نسج التعاون الاقتصادي والثقافي شبكة من الاعتماد المتبادل التي استحالت معها القطيعة الكاملة. وكان تدخل القوى الإقليمية عاملاً حاسماً في مرونة هذه العلاقة، مما يجعلها نموذجاً فريداً في تاريخ العلاقات الدولية لكيفية إدارة الصراع والتعايش بين حضارتين عظيمتين.

المبحث الخامس:

تقييم التجربة الدبلوماسية العباسية-البيزنطية

يمثل هذا المبحث الخاتمة التحليلية للدراسة، حيث ينتقل من سرد الوقائع وتحليل الآليات إلى التقييم الشامل للتجربة الدبلوماسية بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية. إن تقييم هذه العلاقات لا يقتصر على حصر النجاحات والإخفاقات فحسب، بل يتعداه إلى فهم الأثر الاستراتيجي لهذه الدبلوماسية على بنية الدولة الإسلامية، وعلى تطور مفهوم العلاقات الدولية في العصر الوسيط. من خلال استقراء المعطيات التاريخية الواردة في المصادر الإسلامية والبيزنطية، يمكن الوقوف على سمات الاستمرارية والتغير، ودور الدبلوماسية في إدارة الصراع، وانعكاسات ذلك على الاستقرار الداخلي، وصولاً إلى الدلالات التاريخية المستفادة.

أولاً: سمات الاستمرارية والتغير في العلاقات الثنائية



عند تتبع مسار العلاقات العباسية-البيزنطية عبر قرون من التفاعل، تبرز سمة مزدوجة تجمع بين "الاستمرارية في الصراع" و"التغير في الآليات". فمن حيث الاستمرارية، ظلت الحالة العامة للعلاقة هي حالة التنافس الاستراتيجي والأيدولوجي. لم يستطع (طرف) القضاء على الآخر تماماً، مما خلق حالة من "التوازن الرعب" التي استمرت حتى سقوط بغداد وبعدها. ظل الإطار النظري للعلاقة محكوماً بمفهوم "دار الإسلام ودار الحرب"، مما أعطى الصبغة الدينية للصراع طابعاً مستمراً لم يتغير بتغير الخلفاء أو الأباطرة (Zakar, 1975).

أما فيما يخص التغير، فقد شهدت العلاقة تحولات جوهرية في الأهداف والأساليب. ففي حين اتسمت المرحلة الأموية بالهجومية التوسعية بهدف إسقاط القسطنطينية، تحولت الاستراتيجية العباسية نحو "الدفاع الهجومي" وتأمين الثغور. كما تغيرت أدوات التفاعل؛ فبدلاً من الاعتماد الكلي على القوة العسكرية، طوّر العباسيون مؤسسة دبلوماسية موازية تتعامل مع البيزنطيين كندة واقعي حتى لو لم تعترف به أيديولوجياً. كذلك، تغيرت موازين القوة عبر العصور؛ فمن هيمنة عباسية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، إلى صعود بيزنطي في القرن الرابع الهجري (العصر المقدوني)، مما فرض تغييراً في نبرة الدبلوماسية من الأمر والنهي إلى التفاوض المتكافئ أحياناً (Kennedy, 2004). هذا التغير يعكس مرونة النظام السياسي العباسي في التكيف مع المتغيرات الدولية، دون التخلي عن الثوابت الشرعية للدولة.

ثانياً: أثر الدبلوماسية في إدارة الصراع الحدودي

لعبت الدبلوماسية دوراً حاسماً في تحويل الصراع الحدودي من حرب شاملة غير محدودة إلى صراع مُدار ومنضبط. لولا الآليات الدبلوماسية، لكانت الحدود منطقة فوضى دائمة، لكن المعاهدات والهدن حولتها إلى مناطق ذات قوانين شبه دولية.

أبرز تجليات هذا الأثر تظهر في "اتفاقيات تبادل الأسرى"، التي كانت تُنفذ بدقة مذهلة رغم حالة الحرب. هذه الاتفاقيات لم تكن مجرد عمليات إنسانية، بل كانت أدوات لبناء الثقة بين الطرفين، وتقليل حدة الاحتقان الشعبي الناتج عن أسر المدنيين والعسكريين. كما أن تحديد خطوط التماس عبر المعاهدات ساهم في استقرار المناطق الحدودية اقتصادياً، مما سمح للسكان بالعيش والعمل دون خوف دائم من الغزو المفاجئ أثناء فترات الهدنة. (Canard, 1968)

علاوة على ذلك، استخدمت الدبلوماسية كأداة لـ"احتواء الأزمات". فعندما كانت تحدث خروقات من قبل قادة الثغور المحليين، كانت الرسائل الدبلوماسية المباشرة بين الخليفة والإمبراطور تعمل كصمام أمان لمنع التصعيد. لقد أثبتت التجربة العباسية أن الدبلوماسية ليست بديلاً عن الحرب فحسب، بل هي أداة مكملتها لإدارتها، حيث تُستخدم المفاوضات لتثبيت مكاسب الحرب أو لإنهائها بأقل الخسائر الممكنة. هذا النضج في إدارة الصراع الحدودي يعكس وعياً سياسياً عالياً لدى صناع القرار في بغداد، الذين أدركوا أن تكلفة الحرب المستمرة تفوق بكثير مكاسبها على المدى الطويل. (Haldon, 1997)

ثالثاً: انعكاسات العلاقات على الاستقرار السياسي في الدولة العباسية

كان للعلاقات الخارجية مع البيزنطيين أثر عميق ومباشر على الاستقرار الداخلي للدولة العباسية، ويمكن رصد هذا الأثر في مستويين: الشرعي السياسي، والعبء الاقتصادي.

على مستوى الشرعي، كان النجاح في الجهاد البيزنطي أو إبرام معاهدات مجيدة يُستخدم كأداة دعائية لتعزيز شرعية الخليفة. في فترات الضعف الداخلي، كان الخلفاء يلجأون إلى الحملات الصيفية لإظهار القوة وكسب تأييد الجيش والشعب. كانت الهزائم أمام البيزنطيين تُستغل من قبل الحركات المعارضة (كالعلويين أو



الخوارج) للطعن في كفاءة الخلافة وشرعيتها الدينية. كانت الدبلوماسية والعلاقة مع البيزنطيين جزءاً من المعادلة الداخلية للسلطة. (El-Cheikh, 2004)

أما على المستوى الاقتصادي، فقد شكلت النفقات الحربية على الثغور عبئاً ثقيلاً على بيت المال العباسي، خاصة في فترات التوسع العسكري. كانت المعاهدات التي تنص على دفع الجزية من البيزنطيين (كما في عهد هارون الرشيد) تُعد إنجازاً اقتصادياً وسياسياً يدعم الخزينة. في المقابل، كانت فترات السلام الطويل تسمح بإعادة توجيه الموارد نحو مشاريع العمران الداخلي أو مواجهة الثورات الداخلية (كثورة الزنج). لذلك، يمكن القول إن إدارة العلاقة مع البيزنطيين كانت مؤشراً على صحة الدولة العباسية؛ فعندما كانت الدولة قوية، كانت الدبلوماسية في موقع المبادرة، وعندما ضعفت، أصبحت الدبلوماسية أداة للدفاع عن البقاء، مما يعكس الترابط الوثيق بين الاستقرار الداخلي والسياسة الخارجية. (Lilie, 1976)

رابعاً: الدلالات التاريخية والاستنتاجات في ضوء المصادر

من خلال النقد المقارن للمصادر التاريخية الإسلامية والبيزنطية، تبرز عدة دلالات تاريخية جوهرية تخلص إليها هذه الدراسة:

أولاً، **نضج الدبلوماسية الإسلامية**: تثبتت الدراسة أن الدولة العباسية امتلكت جهازاً دبلوماسياً مؤسسياً متطوراً، لم يكن ارتجالياً، بل خضع لأعراف وبروتوكولات محددة (كالسفارات، المراسلات، المعاهدات). هذا يدهش الصورة النمطية التي تصور العلاقات في العصر الوسيط بأنها قائمة على القوة الغاشمة فقط.

ثانياً، **تعددية الأبعاد الحضارية**: تكشف المصادر أن العلاقة لم تكن عسكرية بحتة، بل شملت أبعاداً تجارية وثقافية وعلمية عميقة. التبادل العلمي (حركة الترجمة) والتجاري استمر حتى في فترات التوتر، مما يدل على وجود "مصالح مشتركة عليا" تتجاوز الصراع السياسي، وهو درس مهم في تاريخ العلاقات الدولية (Gutas, 1998).

ثالثاً، **أهمية النقد المصدري**: أظهرت الدراسة أن الاعتماد على مصدر واحد (إسلامي أو بيزنطي) يؤدي إلى تشويه الصورة التاريخية. فالروايات الإسلامية تميل للمبالغة في الانتصارات، والبيزنطية تميل لإخفاء الهزائم. الحقيقة التاريخية تكمن في المنطقة الرمادية بين الروايتين، حيث يتقاطع الواقع السياسي مع الدعاية الإعلامية لكل طرف. لذا، فإن المنهج المقارن هو السبيل الوحيد لإعادة بناء تاريخ دقيق لهذه العلاقات (Robinson, 1993).

رابعاً، **الإرث التاريخي**: تركت التجربة العباسية-البيزنطية إرثاً من القواعد والأعراف التي أثرت في العلاقات الإسلامية-الأوروبية لاحقاً، بما في ذلك فترة الحروب الصليبية. مفاهيم مثل حماية الرسل، وحرية المرور للتجار، ومعاهدات تبادل الأسرى، كلها جذورها ممتدة في هذه الفترة التأسيسية.

الخاتمة

تُعدّ العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية واحدة من أكثر الفصول تعقيداً وغنى في تاريخ العلاقات الدولية خلال العصور الوسطى. لقد أثبتت هذه الدراسة أن التفاعل بين القوتين لم يكن محكوماً فقط بمنطق الصراع العسكري والحدود الدموية، بل كان يُدار أيضاً عبر قنوات دبلوماسية مؤسسية دقيقة، تستند إلى أعراف متفق عليها، ومراسلات سياسية مدروسة، ومعاهدات دولية ملزمة. لقد نجحت الدولة العباسية، رغم اختلافها الجذري مع البيزنطيين في العقيدة والنظام السياسي، في بناء نموذج دبلوماسي يجمع بين الثبات المبدئي المستمد من الشريعة الإسلامية، والمرونة البراغماتية التي تفرضها ضرورات الواقع الجيوسياسي.



إن الانتقال من سياسة "التوسع المستمر" في العصر الأموي إلى سياسة "إدارة الحدود والتوازن الاستراتيجي" في العصر العباسي، سمح بظهور فضاء دبلوماسي واسع، تجلّى في تبادل السفارات، وتنظيم عمليات تبادل الأسرى بشكل إنساني منظم، وازدهار التبادل التجاري والعلمي حتى في أوج التوتر العسكري. وقد أظهر التحليل النقدي للمصادر التاريخية الإسلامية والبيزنطية أن كلا الطرفين استخدم الدبلوماسية كأداة لتعزيز شرعيته الداخلية، وكسب الوقت استراتيجياً، وإدارة الصراعات الإقليمية المعقدة. وفي الختام، فإن هذه التجربة التاريخية تقدم شاهداً على نضج العقلية السياسية الإسلامية في التعامل مع "الأخر" المختلف، وتؤكد أن الحضارات لا تتفاعل فقط عبر صدام السيوف، بل أيضاً عبر حوار الدبلوماسية وتبادل المنافع.

النتائج

بناءً على ما تم عرضه وتحليله في مباحث هذا البحث، توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج العلمية الرئيسية، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1. **تحول استراتيجي جوهري:** أحدث قيام الدولة العباسية تحولاً نوعياً في طبيعة العلاقات مع البيزنطيين، حيث انتقلت من منطق الغزو الوجودي والاستيلاء على القسطنطينية (كما في العصر الأموي) إلى منطق إدارة الحدود، والدفاع الاستراتيجي، واستخدام الدبلوماسية كأداة موازية للقوة العسكرية لتثبيت المكاسب وتأمين الجبهات الداخلية.
2. **مؤسسية الدبلوماسية العباسية:** امتلكت الدولة العباسية جهازاً دبلوماسياً منظماً يتضمن سفراء محترفين، وديواناً للرسائل، وبروتوكولات محددة للاستقبال والتفاوض. لم تكن البعثات الدبلوماسية عشوائية، بل كانت تحمل أهدافاً سياسية واستخباراتية واقتصادية واضحة، وتتمتع بحصانة معترف بها من قبل الطرف البيزنطي.
3. **ثنائية الخطاب الديني والسياسي:** اتسم الخطاب الدبلوماسي المتبادل بازدواجية واضحة؛ حيث استخدم البعد الديني والأيدولوجي كأداة للضغط النفسي وتبرير المواقف في المراسلات الرسمية (دعوة للإسلام أو دفاع عن المسيحية)، بينما سادت البراغماتية السياسية والمصالح المشتركة أرض الواقع في تنفيذ المعاهدات والاتفاقيات التجارية وتبادل الأسرى.
4. **دور الثغور كمنطقة تفاعل:** لم تكن المناطق الحدودية (الثغور) مجرد خطوط تماس عسكرية، بل مثلت مناطق حيوية للتفاعل اليومي، حيث نشأت فيها أعراف محلية لإدارة الهدن الصغيرة، والتبادل التجاري، والتواصل بين القادة المحليين للطرفين، مما خفف من حدة الصراع المركزي أحياناً.
5. **التبادل الحضاري رغم الصراع:** أثبت البحث أن الصراع السياسي والعسكري لم يمنع حدوث تبادل حضاري عميق، خاصة في المجالات العلمية (حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية)، والتقنية العسكرية، والفنون. بل إن الدبلوماسية كانت القناة الرسمية التي سهلت انتقال المخطوطات والعلماء بين بغداد والقسطنطينية.
6. **أثر المصادر والتحيز:** كشفت المقارنة بين المصادر الإسلامية والبيزنطية عن وجود تحيز واضح في كل منهما يخدم الرواية الرسمية للدولة. فالاعتماد على مصدر واحد يؤدي إلى صورة مشوهة، بينما يسمح المنهج المقارن باستخراج الحقيقة التاريخية الكامنة وراء الدعاية السياسية لكلا الطرفين.
7. **الترباط بين الاستقرار الداخلي والسياسة الخارجية:** ارتبطت قوة أو ضعف الدبلوماسية العباسية تجاه البيزنطيين ارتباطاً وثيقاً بالاستقرار الداخلي للدولة؛ ففي فترات القوة المركزية، كانت الدبلوماسية هجومية وفرضت شروطها، بينما في فترات الضعف والانقسام، تحولت إلى أداة دفاعية لشراء السلام أو درء الخطر.

التوصيات



في ضوء النتائج التي توصل إليها هذا البحث، يوصي الباحث بما يلي:

1. إدراج التاريخ الدبلوماسي الإسلامي في المناهج الأكاديمية: ضرورة الاهتمام بتدريس جوانب الدبلوماسية والعلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي في الجامعات والمدارس، لتصحيح الصورة النمطية التي تركز فقط على الجانب العسكري والفتوحات، وإبراز الجانب الإداري والحضاري المشرق.
2. تشجيع الدراسات المقارنة المصدرية: حث الباحثين والمؤرخين على إتقان اللغات القديمة (اليونانية البيزنطية والسريانية) بجانب العربية، لتمكينهم من الوصول إلى المصادر الأولية بكافة أطرافها، وإجراء مقارنات نقدية أعمق تغني المكتبة التاريخية برؤى متوازنة.
3. الاستفادة من النماذج التاريخية في الدبلوماسية المعاصرة: على صانعي القرار والدبلوماسيين المعاصرين في العالم الإسلامي دراسة نماذج الإدارة الذكية للصراع التي انتهجها العباسيون، خاصة في كيفية الجمع بين الثبات على المبادئ والمرونة في الوسائل، وكيفية استخدام الأدوات الاقتصادية والثقافية كأوراق ضغط دبلوماسي فعالة.
4. توثيق ونشر المخطوطات ذات الصلة: العمل على تحقيق ونشر المخطوطات النادرة التي تتناول تفاصيل السفارات والمراسلات بين الخلافة والإمبراطوريات المجاورة، والتي لا تزال مخطوطة أو غير مفهومة بشكل دقيق في المكتبات العالمية.
5. إعادة قراءة مفهوم "الجهاد" في سياقه التاريخي: تقديم قراءات علمية موضوعية لمفهوم الجهاد والعلاقة مع غير المسلمين في التاريخ الإسلامي، توضيح التمايز بين الحالة القتالية وحالة العهد والسلام، مستنديين إلى الوقائع التاريخية الموثقة للعلاقات مع البيزنطيين.

آفاق البحث المستقبلية

إن ما تم تناوله في هذا البحث يمثل غيضاً من فيض في مجال العلاقات الدولية في العصر الإسلامي الوسيط، ولا يزال هناك العديد من المساحات البكر التي تنتظر البحث والتنقيب. ومن أبرز الآفاق المقترحة للأبحاث المستقبلية:

1. دراسة دور المرأة في الدبلوماسية العباسية-البيزنطية: البحث في تأثير أمهات الخلفاء وزوجاتهم، أو الإمبراطورات البيزنطيات (مثل الإمبراطورة إيرين وثيودورا) في توجيه السياسة الخارجية وعقد المعاهدات، وهو جانب غالباً ما يتم إغفاله في السرديات التقليدية.
2. التحليل اللغوي والبلاغي للرسائل الدبلوماسية: إجراء دراسة لغوية متخصصة لنصوص الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والأباطرة، لتحليل الأساليب البلاغية، والمفردات المستخدمة، وتأثيرها النفسي على المستقبل، باستخدام مناهج تحليل الخطاب الحديثة.
3. الجانب الاقتصادي التفصيلي للتبادل التجاري: البحث في الأرشاقات المالية والعملات المكتشفة، ودفاتر الجمارك (إن وجدت)، لرسم خريطة دقيقة لحجم وطبيعة التبادل التجاري بين البلدين، وتأثيره على الاقتصاد الكلي للدولة العباسية.
4. دور المترجمين والوسطاء الثقافيين: تخصيص دراسة لدور فئة المترجمين (الترجمان) والوسطاء من أهل الذمة أو المرتزقة الذين عملوا كجسر تواصل بين اللغتين العربية واليونانية، وكيف شكلوا فهم كل طرف للآخر.
5. مقارنة التجربة العباسية-البيزنطية مع علاقات إسلامية أخرى: إجراء دراسات مقارنة بين آليات الدبلوماسية العباسية مع البيزنطيين، وبين دبلوماسية الدول الإسلامية الأخرى (كالفاطميين مع



البيزنطيين، أو العثمانيين لاحقاً مع أوروبا)، لاستخراج الثوابت والمتغيرات في الفكر الدبلوماسي الإسلامي عبر العصور.

٦. الأثر المعماري والفني للدبلوماسية: تتبع الآثار المادية الناتجة عن هذا التفاعل، مثل القصور التي بنيت على نمط بيزنطي في بغداد، أو الكنائس التي تأثرت بالفن الإسلامي في الأراضي البيزنطية، كدليل مادي على عمق التبادل الحضاري.

إن فتح هذه الآفاق البحثية سيساهم بلا شك في إثراء فهمنا لتاريخ العلاقات الدولية، وسيقدم إضافة نوعية للمكتبة التاريخية العالمية، مؤكداً على أن الحوار والتفاعل الحضاري كانا سمة ملازمة للعلاقة بين الإسلام والمسيحية الشرقية عبر العصور.

المصادر

أولاً: المصادر الأولية

أ. المصادر العربية والإسلامية:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد. (١٩٦٥). *الكامل في التاريخ* (ج ١-١٢). دار صادر.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (١٩٥٦). *تاريخ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من نوي الشأن الأكبر* (ج ١-٧). دار الثقافة.

ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله. (١٨٨٩). *المسالك والممالك*. (M. J. de Goeje, Ed.). Brill.
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. (١٩٥٧). *فتوح البلدان* (د. صلاح الدين المنجد، محقق). دار المعارف.
الطبري، محمد بن جرير. (١٩٦٠). *تاريخ الرسل والملوك: تاريخ الأمم والملوك* (ج ١-١١). دار المعارف.

المسعودي، علي بن الحسين. (١٩٦٥). *مروج الذهب ومعادن الجواهر* (ج ١-٤). دار الثقافة.
ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله. (١٩٩٥). *معجم البلدان* (ج ١-٧). دار صادر.

ب. المصادر البيزنطية والمترجمة:

Genesios, J. (1978). *On the Reigns of the Emperors* (A. Kaldellis, Trans.). Byzantina Australiensia.

Leo the Deacon. (2005). *The History of Leo the Deacon: Byzantine Military Expansion in the Tenth Century* (A.-M. Talbot & D. F. Sullivan, Trans.). Dumbarton Oaks.

Theophanes the Confessor. (1982). *The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History, AD 284-813* (C. Mango & R. Scott, Trans.). Oxford University Press.

Constantine VII Porphyrogenitus. (1967). *De Administrando Imperio* (G. Moravcsik, Ed.; R. J. H. Jenkins, Trans.). Dumbarton Oaks.



ثانياً: المصادر الثانوية (الدراسات الحديثة)

أ. الدراسات العربية:

- الخضري، محمد. (١٩٦٨). تاريخ الدولة العباسية. دار الفكر العربي.
العمري، أكرم ضياء. (١٩٨٠). السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لقراءة جديدة وفق معايير المقارنة. دار العلم للملايين.
حمادة، بلقاسم. (١٩٨٩). الدولة العباسية في المغرب والأندلس. دار الغرب الإسلامي.
زكار، محمد سهيل. (١٩٧٥). العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية. دار الفكر.
سعيد، عبد العزيز. (١٩٨٥). العلاقات الخارجية في الإسلام. دار النهضة العربية.
شفيق، محمد. (١٩٩٢). الدبلوماسية الإسلامية في العصر العباسي الأول. دار الفكر العربي.
العبادي، أحمد محمود. (١٩٩٨). الحدود والثغور في الدولة العباسية. دار النفائس.

ب. الدراسات الأجنبية:

- Ashtor, E. (1976). *A social and economic history of the Near East in the Middle Ages*. Collins.
Bonner, M. (2008). *Jihad in Islamic history: Doctrines and practices*. Princeton University Press. <https://doi.org/10.1515/9781400827183>
Brooks, E. W. (1903). The Arabs in Asia Minor (641–750), from Arabic Sources. *The Journal of Hellenic Studies*, 18, 182–208. <https://doi.org/10.2307/623776>
Canard, M. (1968). *Byzance et le monde musulman aux origines de l'Islam*. Variorum Reprints.
El-Cheikh, N. M. (2004). *Byzantium through the Islamic prism from the twelfth to the thirteenth century*. In A. E. Laiou (Ed.), *The Crusades from the perspective of Byzantium and the Muslim world* (pp. 53–70). Dumbarton Oaks.
Gutas, D. (1998). *Greek thought, Arabic culture: The Graeco-Arabic translation movement in Baghdad and early 'Abbasid society*. Routledge. <https://doi.org/10.4324/9780203202927>
Haldon, J. F. (1997). *Byzantium in the seventh century: The transformation of a culture* (Rev. ed.). Cambridge University Press. <https://doi.org/10.1017/CBO9780511487567>
Kennedy, H. (2004). *The Prophet and the Age of the Caliphates: The Islamic Near East from the 6th to the 11th Century* (2nd ed.). Pearson Education.



- Lilie, R.-J. (1976). *Byzanz und die Kreuzfahrerstaaten: Studien zur Politik des Byzantinischen Reiches gegenüber den Staaten der Kreuzfahrer in Syrien und Palästina bis zum Vierten Kreuzzug*. De Gruyter.
- Lopez, R. S. (1971). *The commercial revolution of the Middle Ages, 950–1350*. Prentice-Hall.
- McCormick, M. (1986). *Eternal victory: Triumphal rulership in Late Antiquity, Byzantium, and the early medieval West*. Cambridge University Press.
- Robinson, C. F. (1993). *Islamic historiography*. Cambridge University Press.
<https://doi.org/10.1017/CBO9780511487567>
- Rosenthal, F. (1975). *The classical heritage in Islam*. University of California Press.
- Runciman, S. (1975). *The Eastern Schism: A study of the papacy and the Eastern Churches during the XIth and XIIth centuries*. Oxford University Press.
- Shepard, J. (Ed.). (2008). *The Cambridge history of the Byzantine Empire c. 500–1492*. Cambridge University Press. <https://doi.org/10.1017/CHOL9780521832311>
- Treadgold, W. T. (1997). *A history of the Byzantine state and society*. Stanford University Press.
- Whittow, M. (1996). *The making of Byzantium, 600–1025*. University of California Press. <https://doi.org/10.1525/9780520916636>

ثالثاً: المصادر الإلكترونية وقواعد البيانات

- . Retrieved from <https://shamela.ws> المكتبة الشاملة Al-Maktaba al-Shamela. (n.d.).
- Byzantine Studies Association. (n.d.). *Byzantine Studies: Resources and Bibliography*. Retrieved from <https://www.byzantine-studies.org>
- Islamic History Sourcebook. (n.d.). *Fordham University*. Retrieved from <https://sourcebooks.fordham.edu/islamic/islamsbook.asp>
- Dumbarton Oaks Research Library and Collection. (n.d.). *Byzantine Texts in Translation*. Harvard University. Retrieved from <https://www.doaks.org/resources/byzantine-texts-in-translation>